

عاشوراء عند المغاربة

• الدكتور عباس الجراري^(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

أصل هذا الكتاب بحث كنت قدمته إلى المؤتمر الدولي الثاني المنعقد في طهران (يومي ١٣-١٤ محرم ١٤١٧هـ / ٣١ مايو فاتح يونيو ١٩٩٦م) للإمام الخميني وثقافة عاشوراء) ثم نشرته في مجلة (الدوحة) (السنة الأولى - العدد الأول - رجب ١٤١٧هـ - نوفمبر ١٩٩٦م) المغربية.

وقد حثني على إصداره ما أتلّقه من أسئلة كثيرة يثيرها المواطنون حول عاشوراء وما هو متداول فيها من عادات وتقاليد وممارسات ومرددات، رغبة منهم في معرفة أسبابها ومراميها.

ومثلها استفسارات غير قليلة يقدمها إخواننا المشاركة الشيعة، ولاسيما من إيران والعراق ولبنان، حول ما يروونه تناقضاً في هذا المتداول الجامع في رأيهم بين الفرح والحزن، والجامع كذلك بين مؤثرات متعارضة يستغربون لوجودها في بلد كالمغرب.

(١) الدكتور عباس الجراري نجل العلامة الشيخ عبد الله الجراري، أحد كبار الشخصيات العلمية والأدبية والدبلوماسية المغربية، ولد بالرباط في ١٩٣٧/٢/١٥ ودرس في القاهرة وباريس، وتنقل في عدة وظائف أكاديمية وثقافية وسياسية كتب والف ونشر مجموعة كبيرة من الكتب والبحوث التي تناولت الدراسات المغربية، والتراث الشعبي والأدب العربي الإسلامي، والثقافة الاندلسية وقضايا الفكر والتراث والتحقيق العلمي كما قدم مئات المحاضرات والأبحاث في عدد من الجامعات والمنتديات الفكرية وأشرف على أطروحات الدكتوراه والمجستير في جامعات المغرب المختلفة، وهو صاحب نادي الجراري الأدبي الذي نال شهرة عالمية طائلة. ويبحثه عن عاشوراء مما أهدانيه الأخ والصدّيق الدكتور علي لغزيوي مشكوراً.

والقصد عندي هو تقديم دراسة أولية لهذا الموضوع الذي يعاني -كثير من جوانب التراث المغربي والشعبي منه على الخصوص- قلة المعلومات واضطراب المعطيات وغموض الملابسات.

فلعلها أن تكون موفية بالغاية ومحقة للهدف، وأن تكون مغرية للدارسين المعنيين ولو بحصر مجالها في إقليم معين أو جهة محددة. وبالله العون والتوفيق عباس الجارري
الرباط ٥ ذي الحجة ١٤١٩هـ / فاتح إبريل ١٩٩٩م

فضل عاشوراء

يقع يوم عاشوراء في شهر محرم، وهو من الأشهر الأربعة الحرم التي هي ذو القعدة وذو الحجة ومحرم ثم رجب.

وقد شرع الله تحريم هذه الأشهر منذ عهد إبراهيم عليه السلام، حتى يتسنى الحج، وحتى يتاح للناس قضاء مصالحهم، في بذلك مفضلة عند الله بما يجعل فيها من استجابة وأجر، كما هو الشأن مثلاً بالنسبة لليلة القدر التي هي (خير من ألف شهر). وكان العرب يتحايلون على هذا التحريم الذي يستمر ثلاثة أشهر متوالية هي ذو القعدة وذو الحجة ومحرم، فيرجئون حرمة بعضها إلى شهر آخر، وبذلك يحلون شهراً حراماً ويحرمون شهراً حلالاً، وهو ما يسمى (النسيء).

واعتبره الحق سبحانه زيادة في الكفر، يقول تعالى: (إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ* إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُؤْاطُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءَ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ) [التوبة: ٣٦ - ٣٧].

يُضَافُ إلى هذا أن المسلمين اتخذوا التقويم الهجري مفتتحينه بأول محرم، وهم في ذلك خالفوا التقليد العربي الذي كان شائعاً، والذي كان يقتضي التأريخ بالوقائع الكبرى في حياتهم، كانهيار سد مأرب وتجديد بناء الكعبة وعام الفيل، في وقت كان اليهود قد اتخذوا التقويم العبري الذي يبدأ من العام الذي خرج فيه اليهود من مصر فارين من فرعون بعد نجا الله نبيه موسى عليه السلام من الغرق، وكان النصارى يؤرخون بدءاً بميلاد المسيح عليه السلام، وكذا كان لكل من الفرس والروم تقويم خاص بهم مرتبط بأحداث تاريخهم.

وقد شرع المسلمون في التأريخ بالهجرة في عهد عمر بن الخطاب (رض) وبالضبط في السنة السابعة عشرة، وكانت لذلك دوافع مباشرة بعد أن اتسعت رقعة الدولة الإسلامية ونظمت الإدارة والدواوين وبيت المال، وكثرت المكاتبات والمراسلات مع الولاة وغيرهم في الداخل والخارج، مما جعل المسلمين يشعرون بضرورة التأريخ لذلك كله، ويقال إن أبا موسى الأشعري كتب لعمر يلاحظ أنه تأتي رسائل من أمير المؤمنين ليس لها تاريخ.

وهذا لا يعني أن المسلمين لم يكونوا يؤرخون بإطلاق فمن المعروفة أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أرخ بالهجرة في كتابه لنصارى نجران، إذ طلب من علي بن أبي طالب (رض) أن يكتب عليه أنه كتب لخمس من الهجرة. وفي عهد أبي بكر (رض) وقع التاريخ بالوفاة وكذلك بالسنوات التي قضاها النبي صلى الله عليه وآله وسلم في المدينة.

مهما يكن فقد قدمت لابن الخطاب (رض) عدة اقتراحات تدعو إلى التأريخ بميلاد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) أو مبعثه أو وفاته أو ببعض الأحداث الكبرى كغزوة بدر وفتح مكة، واقتراح ابن أبي طالب (رض) التأريخ بالهجرة سيرا على ما كان خطه بيده بأمر من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في كتابه لنصارى نجران، فوقع الاتفاق على هذا الاقتراح باعتبار أن الهجرة هي التي أظهرت الإسلام ودخلت به إلى مرحلة جديدة أي أهما هي بدايته الفعلية والحقيقية.

وإذا كان التقويم قد بدأ بشهر محرم مع أن الهجرة تمت في ربيع، فلأنه أول شهور العدة، ولأنه يصادف انصراف الناس من الحج، بالإضافة إلى أنه شهر حرام ثم إنه قد وقع اللجوء إلى التقويم القمري وليس الشمسي اعتمادا على ما نص عليه القرآن الكريم في اعتبار الأهلة أساسا للحساب ولأداء عدد من العبادات إذ يقول: (هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِّتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِّينَ وَالْحِسَابَ) [يونس : ٥].

ويقول: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ) [البقرة : ١٨٩].

هذا وإن من بين أيام هذا الشهر الحرم يوما متميزا بفضله، يقع في العاشر منه وهو الذي يسمى عاشوراء ويطلق عليه العاشوراء والعشوراء والعاشورا والعشورا والعاشور وهي كلها أسماء يعرف بها عاشر الحرم، وقد تطلق على تاسعه.

وقد ورد حول عاشوراء أحاديث ونقلت أقوال تذهب إلى أنه في هذا اليوم:

خلق الله السموات والأرض وادم والجنة، وأنه فيه أدخل آدم الجنة وفيه تاب عليه، وأن فيه ولد إبراهيم وفيه نجا الله من النار وأن فيه كشف البلاء عن أيوب وأن فيه كذلك ولد عيسى ورفع إلى السماء وما إلى ذلك مما يغلب عليه الوضع ولا يثبت للنقد والتصحيح،

وإن كان لا يقصد منه إلا إلى إبراز عظمة هذا اليوم وفضله. وإنها لمكانة تتضح من بعض الأحاديث الصحيحة التي رويت عنه.

فعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: (كان يوم عاشوراء تصومه قريش في الجاهلية وكان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يصومه في الجاهلية، فلما قدم المدينة صامه وأمر بصيامه، فلما فرض رمضان ترك يوم عاشوراء فمن شاء صامه ومن شاء تركه) (رواه البخاري ومسلم وأبو دواد والترمذي).

وإن تأمل هذا الحديث الشريف يدعو إلى توضيح أمرين: أولهما: أن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) صام يوم عاشوراء قبل فرض رمضان، وصوم رمضان فرض في شعبان من السنة الثانية للهجرة. وثانيهما: أن في هذا الحديث تحييراً بين صوم عاشوراء أو عدم صومه، وقد رفع هذا التخيير ببيان فضل صومه والحث عليه باعتباره سنة.

فعن أبي قتادة (رض) أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) سئل عن صيام يوم عاشوراء فقال: يكفر السنة الماضية^(١).

ومعروف أن الصوم في شهر محرم عامه مفضل، للحديث الذي قال فيه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): (أفضل الصيام بعد رمضان شهر رمضان المحرم)^(٢).

وعن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: (قدم النبي صلى الله عليه وآله وسلم المدينة فرأى اليهود تصوم يوم عاشوراء، فقال: ما هذا؟ قالوا: هذا يوم صالح، هذا يوم نجى الله فيه بني إسرائيل من عدوهم، فصامه موسى، قال: فأنا أحق بموسى منك فصامه وأمر بصيامه^(٣)).

ويفهم من هذا الحديث أن اليهود كانوا يصومون يوم عاشوراء شكراً لله بعد أن نجى موسى من الغرق وأغرق فرعون، وهو الحادث الذي قصه القرآن الكريم في قوله تعالى: (فَلَمَّا تَرَأَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ (٦١) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) وَأَرْزَلْنَا تَمَّ الْآخَرِينَ (٦٤) وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (٦٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (٦٧) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦٨) [الشعراء: ٦١-٦٨].

(١) أخرجه مسلم.

(٢) رواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي عن أبي هريرة.

(٣) رواه البخاري ومسلم وأبو دواد.

وفي حديث آخر مروي عن ابن عباس (رض) قال: (أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بصوم عاشوراء يوم العاشر)^(١). وفي حديث ثالث عن ابن عباس كذلك قال: صام رسول الله صلى الله عليه وآله يوم عاشوراء وأمر بصيامه، قالوا: يا رسول الله إنه يوم تعظمه اليهود والنصارى، قال: إذا كان العام المقبل إن شاء الله صمنا اليوم التاسع^(٢). ويؤكد معنى هذا الحديث ما ورد أنه صلى الله عليه وآله وسلم قال: لئن شئت إلى قابل لأصومن التاسع).

والقصد من الحديثين هو مخالفة اليهود والنصارى، وهذه المخالفة تقتضي صوم التاسع من العاشر وقد ذهب بعض العلماء في نطاق المخالفة إلى صوم العاشر وما بعده كما ركز آخرون على التاسع اعتماداً على روايات كالتى وردت عن الحكم بن الأعرج أنه قال: (انتهيت إلى ابن عباس وهو متوسد رداءه عند زمزم فقلت له: أخبرني عن صوم عاشوراء؟ فقال: إذا رأيت هلال الحرم فاعدد وأصبح يوم التاسع صائماً، قلت: هكذا كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يصومه؟ قال: نعم)^(٣).

وقد شجع على هذه الرواية أن عاشوراء والكلمات التي إليها تطلق على العاشر من محرم وكذا على التاسع منه. وبالإضافة على الصوم تحدث الفقهاء عن بعض الأعمال التي يحسن القيام بها في هذا اليوم، وقد نظمها بعضهم على هذا النحو:

عليكم يوم عاشوراء قومي	بأن تأتوا بعشر من خصال
بصوم والصلاة ومسح أيدي	على رأس اليتيم والاغتيال
وصلح والعيادة للإعلال	وتوسيع الطعام على العيال
وثامنها زيادة عالمكم	وتاسعها الدعاء مع اكتحال

ومثله قول الآخر:

في صوم عاشوراء عشر تتصل	بها اثنتان ولها فضل نقل
صم صل صل زر عالماً واكتحل	رأي اليتيم امسح تصدق واغتسل
وسع على العيال قلم ظفرا	وسورة الإخلاص ألفا تقرا

(١) أخرجه الترمذي وصححه.

(٢) رواه مسلم وأبو داود عن ابن عباس وزاد فلم يأت العام المقبل حتى توفي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

(٣) أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي.

وقد ذهب بعض العلماء إلى أنه لم تثبت هذه الأعمال بالأحاديث الصحيحة بل كل ما ورد فيها باطل أو واه خارج عن حد الاحتجاج به^(١)، مما حدا بالشيخ علي الأجهوري إلى القول:

ولم يرد من ذا سوى الصوم كذا توسعة وغير هذا انتبذا

عاشوراء بين أهل السنة والشيعة

مهما يكن فإن يوم عاشوراء -على ما فيه من فضل- لم يلبث أن أكتسي أهمية خاصة منذ صادف يوم مقتل الحسين (رض) في عاشر محرم سنة إحدى وستين للهجرة، ومع أهمية هذا الحادث وبسببه ظهر خلاف بين المسلمين توارثوه انطلاقاً من مواقف سياسية مرتبطة به.

إن سيدنا الحسين (رض) هو السبط الشهيد ابن سيدتنا فاطمة الزهراء (رض)، نشأ في بيت النبوة مع أخيه سيدنا الحسن (رض)، وفيهما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة)^(٢).

فقد خرج الحسين يحاول استرجاع الخلافة من يزيد بن معاوية، ولكن الجيش الأموي بقيادة عبيد الله بن زياد تصدى له في كربلاء بالعراق، فقتل الحسين وكثير من آل البيت وحملت رؤوس القتلى ليزيد ومعها رأس الحسين.

منذ هذا التاريخ وقعت تصرفات من المسلمين كافة، بعضها في اتجاه الحزن وبعضها الآخر في اتجاه الفرح، وقد اعتمدت هذه التصرفات على أحاديث وضع معظمها في الغالب لتبرير مختلف المقاصد والاتجاهات، سواء في صف الشيعة أو في صف أهل السنة.

أما الشيعة -وهم في الأصل أولئك الذين يعتقدون في أحقية علي بن أبي طالب (رض) وأبنائه في الخلافة، مع من انضم إليهم من الأعداء السياسيين لبني أمية ومن إليهم- فقد اتخذوا من هذا اليوم مناسبة لإظهار الألم والحزن وحكي القصص المثيرة حول الحسين وإقامة المآثم لذلك وحث الناس على البكاء والصراخ واللطم والنياح، وإن اتجهت إيران

(١) كتاب لب الأخبار المأثورة فيما يتعلق بيوم عاشوراء لأحمد بن الصديق الغماري ص ٢٢-٢٣ وانظر كذلك ص ٣٥-٣٦ (مطبعة ابن حيون - طنجة ١٣٤١هـ) وقد سبق لأبي الحسن علي بن محمد الشهير بابن القطان (ت- ٦٢٨هـ) أن كتب رسالة صغيرة عن (فضائل عاشوراء) انظرها ضمن مجموع مخطوط في خزانة ابن يوسف بمراكش رقم ١٦٨.

(٢) رواه ابن ماجه عن ابن عمرو وأخرجه الترمذي وابن حنبل عن أبي سعيد، ويروي مع زيادة وأبوها خير منهما.

في السنوات الأخيرة إلى استلهاام المناسبة لإبراز (ثقافة عاشورائية) تقوم على تمجيد الاستشهاد والتحفز منه، في محاولة لتطهيرها من كل الممارسات اللاشرعية. إن قتل الحسين كان لاشك حدثاً مؤلماً ورزواً جسيماً حل بالمسلمين عامة وآل البيت خاصة، كان مصيبة كتلك المصائب التي نزلت حين قتل عدد كبير من الصحابة ومن أفراد بيت النبوة الأطهار.

ولكن المسلمين كانوا يتلقون هذه المصائب بالصبر والاحتساب امتثالاً لقوله عز وجل: (وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ* أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ)

[البقرة: ١٥٤-١٥٥-١٥٦].

وأما أهل السنة - والمغرضون منهم ولاسيما أولئك الذين كانوا مواليين للأمويين - فإنهم يتخذون هذا اليوم مناسبة لإظهار الفرح والسرور ويبالغون في ذلك.

وقد لاحظ المؤرخون هذه الظاهرة في مختلف العصور، على نحو ما قال أبو الريحان محمد البيروني في القرن الخامس الهجري وهو يتحدث عن شهر محرم: اليوم الأول منه معظم لأنه غرة الحول ومفتتح السنة، واليوم التاسع منه يسمى تاسوعاء على مثل عاشوراء وهو يوم يصلي فيه الزهاد من الشيعة، واليوم العاشر منه يسمى عاشوراء، وهو يوم مشهور الفضل، وروي عن النبي عليه السلام أنه قال: أيها الناس سارعوا إلى الخيرات في هذا اليوم فإنه يوم عظيم مبارك قد بارك الله فيه على آدم.

وكانوا يعظمون هذا اليوم إلى أن اتفق فيه قتل الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم وفعل به وبهم ما لم يفعل في جميع الأمم بأشرار الخلق من القتل بالعطش والسيوف والإحراق وصلب الرؤوس وإجراء الخيول على الأجساد فتشاءموا به فأما بنو أمية فقد لبسوا فيه ما تجدد وترينوا واكتحلوا وعيدوا وأقاموا الولائم والضيافات وطعموا الحلوات والطيبات وجرى الرسم في العامة على ذلك أيام ملكهم وبقي فيهم بعد زواله عنهم، وأما الشيعة فإنهم ينوحون ويبكون أسفاً لقتل سيد الشهداء فيه ويظهرون ذلك بمدينة السلام وأمثالها من المدن والبلاد ويوزرون فيه التربة المسعودة بكرىلاء، ولذلك كره فيه العامة من تحديد الأواني والأثاث^(١).

(١) الآثار الباقية عن القرون الخالية ص ٣٢٩. ط لبيزك ١٩٢٣ (مكتب المثنى ببغداد).

تقاليد عاشوراء في الكتابات المغربية

لقد شاعت في المغرب عادات ارتبطت بيوم عاشوراء، وهي عادات ترسخت في التقاليد الاجتماعية سواء على المستوى الرسمي أو الشعبي. منها ما ورد عند أبي عبيد الله البكري وهو يصف مدينة (أصيلة) في عصره الذي هو القرن الخامس الهجري، فقد قال عنها أن الناس قد اتخذوا موضعها (رباطا فانتابوه من جميع الأمصار وكانت تقوم فيه سوق جامعة ثلاث مرات في السنة وهو وقت اجتماعهم وذلك في شهر رمضان وفي عشر ذي الحجة وفي عاشوراء^(١) د.

وقرنا بعد ذلك يتحدث عبد الواحد المراكشي عن عادة ختن أطفال الأيتام بمناسبة عاشوراء، وكان اتخذها يعقوب المنصور الموحي وسن إجراءاتها، إذ كان كلما دخلت السنة يأمر أن يكتب له الأيتام المنقطعون فيجمعون إلى موضع قريب من قصره ليختنون ويأمر لكل صبي منهم بمثلقال وثوب ورغيف ورمانة، وربما زاد على المثلقال درهمين جديدين^(٢).

وهو ما أكده ابن عذاري بقوله: وفي سنة خمس وتسعين وخمسمائة أمر المنصور بإعذار الأطفال بمراكش وأن يجعل في يد كل واحد منهم دينار من الذهب ودرهم من الفضة وحنة من الفاكهة الخضراء ليشغل بها الطفل عن ألمه ويصرف الدينار في مداواته، فكان يذهب في ذلك كله فوق الألف ألف ما بين ذهب وفضة، فكان هذا من مكارمه التي لم يسبقه أحد إليها من الملوك المتقدمين^(٣).

ويبدو أن سنة الختان هذه قد ترسخت ولقيت اهتماما من الدولة المرينية، لاسيما في عهد السلطان أبي الحسن الذي ذكر معاصره الخطيب محمد مرزوق التلمساني في القرن الثامن الهجري أن من صدقاته الجارية وحسناته المستمرة التي سنها هو أن في كل عاشوراء من سائر بلاده يجمع الأيتام الذين يفتقرون إلى الختان فيختن كل واحد ويكسوه قميصا وإحراما ويعطى عشر دراهم وما يكتفي به من اللحم، فيجتمع في كل عاشوراء من

(١) كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب (جزء من المسالك والممالك) لأبي عبيد الله البكري ص ١١٢ المنشور بعناية دوسلان. الجزائر.

(٢) المعجب في تلخيص أخبار المغرب لعبد الواحد المراكشي ص ٢٨٧ ت محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي ط الاستقامة - مصر ١٣٦٨هـ / ١٩٤٩م.

(٣) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٠٤ - ٢٠٥ أمبروسي هويسى ميراندة ومشاركة محمد بن تاويت ومحمد إبراهيم الكتاني منشورات كلية الآداب، جامعة محمد الخامس - الرباط بمساهمة المركز الجامعي للبحث العلمي وتحت إشراف معهد مولاي الحسن للبحوث بتطوان ١٩٦٠م.

الأيام من سائر البلاد ما لا يحصى، وهو عمل مستمر في بلاده وسنة جارية قام بها الخلفاء من أولاده^(١).

وبعيدا عن هذا التقليد الذي استمر عبر القرون وما زال حتى الآن، والذي ينم عن جانب إحساني يقوي الجوانب الأخرى التي حثت عليها السنة النبوية، فإننا نجد خليطا من العادات شاعت عند المغاربة هي في ظاهرها -وحتى عند ما يعمق تحليلها- مزيج من طقوس قديمة ومما كان يقوم به الأمويين وما كان لهم من أثر في المغرب عبر دولتهم في الأندلس وكذا ما تناقلوه عن الشيعة أو حمله هؤلاء منذ قدوم الأدارسة إلى المغرب أواخر القرن الثاني للهجرة.

ويمكن التقاط أهم هذه العادات وتحديد الموقف حيالها من كتابات بعض العلماء المتتمين إلى عهود متباعدة، ونقتصر منهم على خمسة:

الأول: محمد بن محمد بن الحاج العبدري المالكي الفاسي المتوفي سنة ٧٣٧هـ، فقد تحدث في المدخل عن هذه العادات فقال: وأما ما يفعلونه اليوم من أن عاشوراء يختص بذبح الدجاج وغيرها ومن لم يفعل ذلك عندهم فكأنه ما قام بحق ذلك اليوم وكذلك طبخهم فيه الحبوب وغير ذلك..

ثم إنهم يضمون إلى ذلك بدعة أو محرما وذلك أنه يجب على بعضهم الزكاة مثلا في شهر صفر أو ربيع أو غيرهما من شهور السنة فيؤرخون إعطاء ما وجب عليهم إلى يوم عاشوراء وفيه من التغير بمال الصدقة ما فيه..

ومن البدع التي أحدثها النساء فيه استعمال الحناء على كل حال فمن لم يفعلها منهن فكأنها ما قامت بحق عاشوراء..

ومن البدع أيضا محرهن فيه الكتان وتسريحه وغزله وتبييضه في ذلك اليوم بعينه ويشلنه ليخطفن به الكفن ويزعمن أن منكرًا ونكيرًا لا يأتيان من كفنهما مخيط بذلك الغل وهذا فيه من الافتراء والتحكم في دين الله ما هو ظاهر بين..

ومما أحدثوه فيه من البدع البخور فمن لم يشتره منهن في ذلك اليوم ويتبخر به فكأنه ارتكب أمرا عظيما، وكونه سنة عندهن لا بد من فعلها وادخارهن له طوال السنة يتبركن به ويتبخرن إلى أن يأتي مثله يوم عاشوراء الثاني ويزعمن أنه إذا بخر به المسجون خرج من سجنه وأنه يرى من العين والنظرة والمصاب والموعوك^(٢).

(١) المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا الحسن ص ٤٢٠ للخطيب محمد بن مرزوق التلمساني، تحقيق د. ماريّا خيسوس بيغرا تقلد محمد بوعباد، ط الجزائر ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.

(٢) المدخل لابن الحاج ج ١ ص ٢٨٣-٢٨٤-٢٨٥ ط ثانية، دار الكتاب، بيروت.

الثاني: قاضي الجماعة بمراكش في منتصف القرن ١٣ هـ محمد بن محمد العربي الرشادي عاشور الرباطي الذي وضع رسالته^(١) في رد ما اشتهر في مراكش ليلة عاشوراء من أمور أحدثوها وسموها الإفراجة تشتمل على مناكر هي لهدم بنائها وقلعها من أصلها محتاجة، وذلك كتشبه الرجال بالنساء وتشبه الرجال باليهود والنصارى، وكالحاكاة لأناس معينين من قبيلة أو بلد أو تجار وكاتخاذ الصور وضرب الرجال آلات اللهو من أجوات ومزامير وغيرها وأخذهم بذلك أموالا من غير طيب أنفس أهلها بل يعطوهم حماية للعرض وتوقيعا من الضرب والشتم وسائر أنواع الإذايات، وكأخذ الكراء على تدوير الصبيان وغيرهم بالنواعير وما ينشأ عن ذلك من الضرر والجراحات^(٢).

الثالث: محمد بن محمد الموقت المراكشي المتوفي عام ١٣٦٩هـ (١٩٤٩م) فقد ذكر في (الرحلة المراكشية) أن من عوائدهم الشنيعة شراؤهم لأولادهم يوم عاشوراء ونصف رمضان صورا محرمة من الصور الحيوانية القائمة بنفسها ولها ظل وليس بها نقص وهذه الصور النظر إليها حرام ولا تدخل الملائكة بيتا هي فيه..

ومن مثالبهم في يوم عاشوراء تخرج النساء الجميلات بأنواع الزينة لزيارة القبور فيتأهين يوم ذلك من طلوع الفجر بالزينة الفاخرة والملابس الزاخرة ويقصدون المقابر للزيارة ومنهم من لا قصد لها بذلك وإنما غرضها الأهم ما يحدث فيها من كثرة تلك المجموعات على اختلاف أنواعها المعدة في هذا اليوم المعروفة بالحلاق المهيأة للعب واللهو وجميع أنواع الباطل..

ومن المناكر الشنيعة في ليلة عاشوراء وقبلها بنحو عشرة أيام استعمالها للعبة المعروفة عندهم بالدقة^(٣).

الرابع: محمد المختار السوسي المتوفي سنة ١٣٨٣هـ / ١٩٦٣م صاحب كتاب (المعسول) حيث تحدث عن بلده إلغ فذكر أن الإلغيين اعتادوا أن يعتمد بعضهم في عشية التأسوعاء إلى الغناء الذي تتركه السيول ضفاف مسيلات الماء فيأخذون منه وهم يضم ما

(١) مخطوطة بالخزانة الحسينية بالرباط رقم ٢٠٢٨ (ضمن مجموع).

(٢) الورقة ١٠ وهذا وعقب عباس بن إبراهيم على هذه الرسالة لدى ترجمة مؤلفها بقوله: وبقي عليه رحمه الله الكلام على إيقاد النيران في تلك الليلة وهي من نوع البدع التي تضمنت إضاعة المال بلا فائدة، وهو ممنوع شرعا، كما تضمنت التشبه بالجحوس الذين يوقدونها لأنهم معبودهم، وما ذكر لي بعضهم أن أصل ذلك أن الناس كانوا يصورون قاتل الحسين ويلقونها في النار فهي بدعة وفيه التشبه أيضا بموقد نار سيدنا إبراهيم الخليل على نبينا وعيه أفضل الصلاة والسلام وقد نجاه الله تعالى منها في تلك الليلة المباركة فليحذر من ذلك كله. (الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام ج ٥ ص ٣٠٣ ط الأولى ١٣٥٨ - ١٩٣٨ المطبعة الجديدة فاس).

(٣) محمد بن الموقت / الرحلة المراكشية أو مرآة المساوي الوقتية ج ٢ ص ٨٧-٨٨-٨٩ مطبعة الحلبي - مصر ١٣٥١هـ.

يضم من أبعاد وأعواد صغار فيبخرون جبه الديار في صبيحة عيد عاشوراء دفعا لتأثير الجن.. وكذلك يعتمد في سحر عاشوراء إلى استقاء الماء من الآبار ظنا من الساقين أن الآبار تستمد من بئر زمزم في ذلك الوقت ومن ذلك اليوم فيرش بذلك الماء جميع زوايا الديار تبركا خصوصا إهراء الزرع وحظائر المواشي.

وفي ليلة عاشور يخرج رعاع الشباب زمرا زمرا إلى بعيد من قريتهم فينادون -فيما زعموا- على الذئب أن يبعد عن غنمهم فينبون هناك أحجارا في القرية فيبيتون على لعب أحواش، وفي صبيحة عاشوراء يبكر جميع الناس رجالا ونساء إلى زيارة المقابر من غير احتلاط يترحمون على أهاليهم ويتصدقون والغالب أن يصبح الرجال وغالب النساء صائمين بل ترى الفقهاء والمتنسكين يحرصون على الاثني عشرة خصلة التي ذكرها العلماء من خصائص عاشوراء من صوم وصدقة وزيارة عالم وصلة رحم ومسح رأس يتيم وصلاة ركعتين وتوسعة النفقة واغتسال وعبادة مريض واكتحال وقلم أظفار وقراءة سورة الإخلاص ألفا، وأهل الحديث يعلنون أنه لا يصح من هذه إلا الصوم وإلا التوسعة على العيال الذي ورد في حديث حسن.

وقد رأيت أحد عند الالغيين من أهل العلم يوصي بغسل ثيابه ذلك اليوم، وكذلك يجتمع أهل القرى على توزيع بقرة ونحوها يفرقونها على الديار ويؤجلون في ثمنها بضمان، ومن كانت لهم غنم لها راع فإن مغرس ذنب كبش عيد الأضحى الذي جعل قديدا يعطى في يوم عاشوراء للراعي وهو يأكله في ذلك اليوم، وهم يحرصون على أن يستدير شيء من قديد الأضحية على دور السنة في ديارهم تبركا به^(١).

الخامس: عبد الله الجراري (والدنا رحمه الله) المتوفي عام ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م فقد أجاب في فتاويه عن سؤال يستفسر عن رأي الدين في جماعة من الناس ما بين رجال ونساء وأطفال يقفزون فوق لهيب النار وفي نساء يقلن بلفظ واحد: يا بابا عشور حليت عشوري فقال: إنها عادة أحدثها غلاة الشيعة كحزن منهم على مقتل الحسين بكر بلاء على يد عبد الله بن زياد. وغير خاف أن المغرب قد انحدرت إليه طوائف كثيرة أصبحت معها عوائدها ومألوفاتها التي منها إشعال هذه النيران المعبر عنها بـ (شعايلة) بل من أصحاب العادات من يلوث وجه بأروث البهائم وأزبالها لحد الندب والنياحة عادات تنفر منها مبادئ الإسلام الصحيحة وتمجها تعاليمه الطاهرة ولا ترضى بكل ما يشوه وجهها ولا ما يتفق والعقيدة الصحيحة والإيمان الصافي القوي، وتتجلى هذه العادة في القرى

والبوادي وقد أصبحنا نرى شيئا منها حتى في بعض المدن التي أمتها وفود من أبناء البادية للاستيطان وكم من عوائد أدخلت على المسلمين لاسيما في عاشر المحرم كلها حزن ونياحة وندب مما يتصادم وروح الإسلام الصحيح واتخاذ النيران وإشعالها كمعبود يتقرب إليه وهو في الأصل عادة مجوسية ارتكبوها تدينا ثم تسرب شيء منها إلى الأمة الفارسية. نعم جاء الفاطميون زمن تضعضع الدولة العباسية واستعملوا هذه العادة، عادة إيقاد النيران على ضفة الدجلة وكانوا أثناء الاشتعال يلقون فيها بعض الحيوانات، غير أنهم فكروا بعد في هذه الحيوانات وما تقاسيه من آلام بالاحتراق الذي لا يعذب به غير الله جلّت عظمتهم فتنكبوا ذلك وعوضوا ما يلقون من حيوانات بإلقاء صور صناعية في شواطئها.. فكان من جراء ما ذكر ما ألعنا إليه، من كون عادات النيران وإشعالها كحزن وألم- قد انحدر من الطوائف الشيعية المنته في بعض أطراف المغرب والمنتشرة فيما جاورها من السكان^(١).

بعض عادات المغاربة في عاشوراء

استنادا على هذه الكتابات وما إليها^(٢)، ومن خلال ما هو مختزن في الذاكرة وما هو مستمر لحد الآن في مختلف المدن والأقاليم المغربية يمكن تتبع العادات المصاحبة لعاشوراء وتقديمها مصنفة على هذا النحو:

(١) فتاوي الجراي (مرقون) ج ١ غير مرقم.

(٢) عني غير قليل من الدارسين ومعظمهم من الأجانب بظاهرة عاشوراء ومن أبرزهم:

1- EDMOND DOUTTE: -MARRAKECH PP 370-371 -372 (COMITE DU MARCOC- PARIS 1905).
-MAGIE ET RELIGION DANS L'AFRIQUE DU NORD PP 532-540 ET 569-570 (ALGER 1909).

2- EUGENE AUBIN: LE MAROC D'AUJOUR D'HUI. PP 287-288 (LIBRAIRIE ARMAND COLIN-PARIS 1908).

3- F. CASTELS: NOTE SUR LA FETE DE ACHOURA A RABAT. (ARCHIVES BERBERES 1916).

4- E. LAOUST: NOMS ET CEREMONIES DES FEUX DE JOIE CHEZ LES BERBERES DU HAUT ET DE L'ANTI ATLAS. (HESPERIS 1921, 1ER ET 3EME TRIM).

5- L. BRUNOT ET MED BEN DAUD: L'ARABE DIALECTAL MAROCAIN P 29 (2ED RABAT 1932).

6- L. BRUNOT: TEXTES ARABES DE RABAT: T II P 524 (PARIS-LIBRAIRIE ORIENTALISTE 1952).

٧- روجي لوطورنو في (فاس قبل الحماية). ت محمد حجي ومحمد الأخضر - ج ٢ ص ٨٥٢ (ط دار الغرب الإسلامي ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م).

8-GASTON DEVERDUN: MARRAKECH DES ORIGINES A 1912 T I P 330 (ED: RABAT 1959).

٩- محمد بخوشة في: أدب المغاربة وحياتهم الاجتماعية والدينية وبعض خرافاتهم (ط.ثالثة الدار البيضاء ١٣٦٣هـ - ١٩٤٣م).

١ — الشروع منذ فاتح محرم في تنظيف داخل المتزل وتبييض جدرانها الخارجية وغسل الثياب والاستحمام، مع إمكان تحديد هذه العملية ليلة عاشوراء، ويطلق عليها لعواشر.
٢ — قيام النساء والفتيات قبل هذا اليوم بتخضيب شعر رأسهن بالحناء وكذا تزويق أيديهم وأرجلهن بها، مع وضع شيء منها في أكف الأطفال الذكور وحتى بعض الرجال. ومن مرددات النساء وقد جملن شعرهن بالحناء وأطلقته:

عاشوري عاشوري
أعليك نطلق أشعوري
كيف أحبال الجراري
ومنها:

بابا عاشوري
أعليك دلتي أشعوري

الامتناع في هذا اليوم وكذا اليومين بعده أو أكثر عند البعض عند تنظيف البيت وغسل الثياب والاستحمام والتطويل والتزميز وإيقاد النار واقتناء فحم أو مكنسة واستعمالها إن وجدت، بل يصل الأمر في بعض الأسر الشريفة إلى عدم ذكر اسم المكنسة، وقد تتخذ منها دمية تزين وتوضع في ركن المتزل، وإلى جانبها الجفاف الذي تمسح به الأرض، ويقال في ذلك بأن (الشطابا أعروسا والجفافا أنفيسا) أي أن المكنسة عروس والجفافة نفساء، للدلالة على تعطيل عملها في هذا اليوم.

وإن وقع الاضطراب إلى شراء المكنسة في عاشوراء، فإن ذلك يتم بصمت مع البائع وحتى لا تدخل إلى الدار من الباب فإنه يتم الإلقاء بها من السور الخارجي إلى وسط الدار أو الفناء وفق ما هو معروف في الهندسة التقليدية للمنازل، وقد ينسحب ذلك حتى على بعض حاجيات البيوت وبصفة خاصة على الملح الذي لا ينبغي أن يؤخذ أو يعطى أو يسلف، ولا ينتهي هذا الامتناع في الأسرة المذكورة والمقصود منه إظهار الحزن إلا بعد انتهاء أيام عاشوراء التي قد تستمر إلى العشرين من محرم وربما آخره ويعلن عن هذا الانتهاء بضرب الطبل وعزف المزمар (الغيطة).

٤ — فتح الكتابات القرآنية صباح يوم عاشوراء إلى الضحى لتحصل البركة طوال العام ثم تعطيلها بعد ذلك بقية اليوم، وقد تمتد العطلة أياما ثلاثة أو عشرة، ويطلق على هذه العطلة لفظ (لعواشر) ومنه اشتق فعل عوشر، ويكون الانصراف إلى هذه العطلة مصحوبا بتبرع الآباء على فقيه الكتاب بما يتيسر من المال وكذا التوسعة على أطفالهم.

ولنفس السبب تفتح المتاجر ثم تغلق، ون شاع بين الناس أن التجار يفعلون ذلك وقد لا يفتحون نهائيا هربا من التصديق على السائلين الذين يكثرون في هذا اليوم.

٥ — اتخذ سوق أو أسواق خاصة لبيع لوازم عاشوراء من حناء وبخور وكحل وفواكه جافة ولعب للأطفال وآلات التطبيل، وغالبا ما تهيأ لعرض هذه اللوازم بدءا من فاتح محرم، ويطلق عليها سوق العاشور.

٦ — أكل الفواكه الجافة وهي التمر والتين والزبيب واللوز والجوز (الكركاغ) وأنواع من الحلويات وغالبا ما تتناول بعد عشاء ليلة عاشوراء، إثر طعام (الكسكس) الذي يفور على اللية وهي مؤخرة الخروف وذنبه، ويحتفظ بها من أضحية العيد مبيسة ومملحة لهذا الغرض، وقد يكون معها شيء من قديد العيد وأمعاء الكباش الجففة (لكرادل) ومن النساء من ييقن عظم الكتف من خروف العيد ويتخذنه لقراءة الحظ ثم يدفنه يوم عاشوراء ويعرف — بابا عاشور.

ومن مرددات النساء في هذه العادة:

قديدا قديدا

مالحا ولذيذا

منشورا عل لعواد

أبا عاشور أداه الوالد

ومنهن من يبتعن امرأة شيطانية امرأت ييليس لهذه القراءة أو لأعمال السحر. والغالب أن يحتفظ من الفاكهة ببعض الجوز ويطلق عليه (كركاغ عاشورا) ظنا أنه يسهل الولادة حين تعسر إذ يوضع في موقد به نار مشتعلة ويتفائل بفرقته التي معها تسهل هذه الولادة، وقد يكفي بقشوره لخلطها مع البخور.

٧ — استعمال البخور بقصد رد العين والأرواح الشريرة وهي نوعان:

بخور مدني يتمثل في الخزامى والشبة والحرمل والجاوي والفسوخ.

وبخور بدوي كاللداد والريحان وفسخ الحنش (جلده).

وتتركأ ببخور يوم عاشوراء، فإن النساء يفضلن الاحتفاظ بشيء منه لاستعماله على امتداد العام.

٨ — اكتحال النساء واستياكهن في الغالب، وإن كان بعضهن يمتنع عن ذلك أيام عاشوراء وبدءا من فاتح محرم، ويتهيأن بن يفعلن قبل حلول الشهر، وهو امتناع يرتبط بمظهر الحزن المشار إليه.

٩ — حث الأطفال على الصيام، وشراء الهيات لهم، منها ما يكون للذكور كالتبول والمزامير واللعب النيرانية، ومنها ما يكون للإناث كالدمى والطبالات الصغيرة المعروفة (لكوالات) والتعارج التي يردد البنات بعض الأناشيد بشأنها كقولهن بأن هذه الكوالات توجد عند بائعها الذي هو الكوال ومنه يشتريها الآباء لبناتهم:
لكوالا عند الكوال

اشراهم لي بابا

والغالب أن تتخذ في السوق أن في بعض ساحات المدينة مراجع ونواعير (زعولات) لتدوير هؤلاء الأطفال، وقد يلجأ الكبار كذلك إلى بعض الألعاب مثل المعابزة التي تعرف اليوم بـ (المصارعة) ومثلها المصارقة التي تعني مواجهة اثنين يلعبان بالعصا وربما توسلا بالسيف على نحو ما هو معروف اليوم بالمسابقة.

١٠ — اقتناء ملابس جديدة أو خياطتها تيمناً بهذا اليوم وفق ما هو شائع من أن اللي يفصل فعاشورا يفصل العام كله، ويكثر ذلك بالنسبة للنساء والأطفال، وحتى الرجال الذي يخططون لهذا اليوم جلابيب بيضاء.

١١ — أيقاد النار في الشوارع والميادين العامة في ليلة عاشوراء ويومها ويطلق عليها (شعالة) أو (شعايلة) أو (تشعالت) في اللهجة البربرية، وبعد إيقادها يبدأ القفز عليها باعتبار ذلك يزيل الشر ويبعده، بل إن البعض يشعلون النار في أفنية منازلهم ويأخذون في الدوران حولها وهم يطلبون ويزمرون ويغنون، وربما أحاطوا بشموع موقدة، وقد يلقون عليها طرف (الذيل) الذي فورا عليه طعام الكسكس، وفي بعض البوادي يشوى هذا الذيل في النار ويعطى للرعاة يأكلونه حتى تكون السنة مخصبة، ومن الأسر من تعتبر رماد هذه النار مباركا وتتخذ لمعالجة بعض أمراض عيون الأطفال، وتجدد الإشارة إلى ما كان يقع في بعض المدن كمراكش حيث تلقى في النار بعض الدمى والصور ومنها ما يمثل قاتل الحسين، وكذا إلى ما يحدث في مناطق أخرى ولاسيما في الأطلس الصغير، إذ تتحلق النساء حول النار ويأخذون بالكاء والندب والنواح وهن ينادين على عاشور، وقبل أن تحمد جذوتها يقفرن عليها ويدفنن الماء عليها ليتوضأن به أو يغتسلن تبركا به وعلاجاً.

١٢ — الإكثار من صب الماء على الأرض، وكان شائعاً أن يلجأ حاملوا الماء المعروفون بـ (الكرابة) إلى ملء قريهم وإفراغها في الأرض مقابل ما يعطيهم المارة المتجولون من مال، وهم يرددون «الما للسبيل الله يرحم مول السبيل».

وحق يتحقق هذا الإكثار من صب الماء تباع جرار صغيرة من الطين يطلق عليها (أقليلشات) يملأها الأطفال بالماء ويصبونها على الأرض وهم يقولون: «أعلى الوالدين».

يقصدون رفات الأجداد وتبركا بهذه الجرات فإن بعض الأسر تحتفظ بها وتسميها (أقلالش وخويبات العاشور) ولشدة ارتباط هذه الظاهرة بيوم عاشوراء أطلق البعض على هذا اليوم عاشورا أم لأقليلشات.

١٣ — صنع الدمى والصور والإلقاء ببعضها في النار كما مر، وفي بعض المناطق كسوس والأطلس المتوسط يمثل بهذه الدمى والصور لـ عاشور وعاشوراء باعتبارهما مخطوبين.

ويرتبط بهذه الظاهرة تشخيص أدوار تمثيلية إنسانية وحيوانية اعتمادا على التنكر في جلد حيوان غالبا ما يكون خروفا أو ماعزا أو بقرة وانطلاقا من صور ودمى تركب على هياكل خشبية مغطاة بقصد التسلية والفكاهة وقد اشتهر في هذه الأدوار شخص بوهو وبوجلود ومرمرة.

١٤ — التوسل بأساليب كثيرة في هذا اليوم لفك السحر أو رد فعل العين والأرواح الشريرة طوال العام من ذلك ما كان معروفا في بعض المدن كالرباط من أخذ الأطفال الصغار إلى الصباغين لصبغ أطرافهم اليمنى بالسواد، ومنه أيضا شراء جعبة العند وهي وعاء حديد صغير بقل تحمله النساء اللائي يخشين العين أو فعل السحر بعد أن يملأنه بالفسوخ، وهو ما يوضع في البخور — كما مر — لفسخ السحر، إذ من هذا المفعول اكتسب التسمية، ومنه بعد هذا شراء الخاتم اليسري — أي اليساري — الذي يشفي من البواسير وقد يتخذ لمنع الحمل.

ويذكر^(١) أن الحداد الذي يصنع هذا الخاتم وتلك الجعبة يقوم بذلك بعد الفجر وقبل طلوع شمس يوم عاشوراء، ويكون وحده في دكانه على حالة خاصة إذ يكون متجردا من الثياب وواقفا على الرجل اليسرى ومغلقا عينه اليمنى.

(١) كما عند CASTELLS المشار إلى وعند عبد الله الجراري والدنا رحمه الله في «القول المحتم في لبس الخاتم» أن ممن يقوم بصنعها في رباط فتحنا ومسقط رأسنا المفضل الحبي الأمين الموقت الشهير أو عبد الله السيد محمد مرسيل الرباطي وذلك وراثته عن أسلافه الكرام ويخرجها في يوم خاص من صفر الخير وذلك من تمام خاصيتها لا في عاشوراء وإنما ألف الناس ذلك ليس إلا، ويقع عليه يوم إخراجها إقبال زائد من مسلمين وغيرهم بلديين وغيرهم، هذا ولا شيء يداخل تلك الخواتم البتة فهي من فضة صرف خالصة (ص ٢٧ ط الرباط ١٣٥٠هـ — ١٩٣٢م).

ومما يلجأ إليه النساء في بعض المدن الساحلية لاسيما اللائي يعتقدن أنهن مسحورات استحمامهن في البحر هذا اليوم حتى يزول ما أصابهن من السحر أو ما يطلق عليه الثقاف وكذلك تفعل الراغبات في الزواج إذ يصب عليهن الماء من سبع موجات، وقد يستعاض عن ماء البحر بماء الآبار المتزلية أو بما يكون محتفظا به من ماء زمزم.

١٥ — زيارة النساء للمقابر والأضرحة ومعهن أطفالهن وقد تزين البنات بأبهى ملابسهن، في استعراض يطلق عليه (للاكسابا) أي السيدة التي تكسب وتعطي، وغالبا ما يكون داخل المقابر أو عند ابوابها وأسوارها، وكانت العادة أن يتم ظهر اليوم الثاني لعاشوراء، وقد كان لاشك فرصة الأسر عرائس لأبنائها.

وتجدر الإشارة إلى أن الفتيات ينشدن في هذا الاستعراض بعض المرددات كقولهن وهن يطلبن من (للاكسابا) أن تمنحهن زوجا في الحال تمون لحيته كالمكنسة:

أ للاكسابا

أعطني راجل دابا دابا

الحيتو كيف الشطابا

كما أن الفتيان ينشدن راجين من (للاكسابا) أن تعطيهم زوجة على الفور:

أ للاكسابا

أعطني أمرا دابا دابا

وإذا كان يلاحظ في هذه المناسبة أن النساء يتمتعن بحرية خاصة فما ذاك إلا بفضل مناسبة عاشوراء، إذ لا يلبث الرجال أن يستعيدوا نفوذهم مع إطلالة عيد المولد، على نحو ما تعني هذه القولة التي يتغنى بها النساء في عاشوراء:

هذا العاشور ما أعلينا أحكام أللا

سيد الميلود يتحكموا الرجال أللا

وقد سجل الشعر الشعبي المعروف بـ (الملحون) ظاهرة الاحتفال بـ (للاكسابا) في عاشوراء على نحو ما فعل الحاج محمد النجار ١٢٤٨هـ وهو يتحدث عن خروج النساء في مواكب تتبعها في أقسام قصيدته ودعا إلى مشاهدتها في الحربة اللازمة التي يقول فيها:

أجي أتشوف يا من لا شاف الهايجات يصدارو

كيف شافت عيني حسان يوم عاشور^(١)

(١) انظر كتاب الزجل في المغرب: القصيدة لصاحب هذا البحث ص ٣٢٥ (ط الرباط ١٩٧٠) وانظر نص القصيدة في الكناش رقم ق ٣٧٥ (مخطوط الخزانة العامة بالرباط).

أصل هذه العادات ومحاولة تفسيرها

إن المتأمل لهذه العادات أو ما يشاهدها مما يقع في عاشوراء لا يلبث أن يتبين أنها مزيج من مظاهر الفرح والحزن، وخليط من ممارسات السنة والبدعة، وتوفيق بين الموقفين الشيعي والأموي وكذا بعض الترسبات المرتبطة بطقوس قديمة.

وإذا كان صعباً على الباحث في الموروثات والتقاليد الشعبية أن يجد لها تفسيراً يضعها في إطارها الصحيح، لانفصالها في الغالب عن الظروف التي أنتجتها، ولما تتعرض له عادة من تحريف وتغيير على امتداد الأزمنة والعصور، فإن هذه الصعوبة تزيد بالنسبة لما يكون من تلك الموروثات والتقاليد مرتبطاً في الذهن وواقع الممارسة بمعطيات تاريخية قد توجه فكر المفسر، مثلما قد تكون وجهت هذه الممارسة.

ولعله من غير المستبعد أن تكون بعض هذه العادات لاسيما ما كان منها متصلاً بالأكل، من بقايا معتقدات قديمة لها صلة بالأرض وفلاحتها والاحتفال بمواسم الجني والحصاد واختزان المحصول وتصيير أجزاء من البهائم المذبوحة والتفائل بالاحتفاظ ببعض هذه الأجزاء على نحو ما يفعل بذيل الخروف.

كما أن التضحية بحيوان أو استعمال جلده لأداء بعض الأدواء التمثيلية التنكيرية لا يخلو من بقايا عقدية قديمة تضع الحيوان في مكان التقديس، إلا أن يكون في ههنا الأدواء العاشورية ما هو ممتزج بسنة الأضحية التي جاء بها الإسلام أو مقصود به الرمز لمقتل الحسين.

وربما يكون إيقاد النار مرتبطاً كذلك ببعض تلك المعتقدات لاسيما والنار بالإضافة إلى خاصيتها التدميرية وربما بسبب هذه الخاصية، كانت بالنسبة لمجتمعات كثيرة رمزا لتجدد الحياة وتطهير الطبيعة مما يجد مجاله عند توديع عالم واستقبال آخر.

أما إلقاء الصور والدمى في النار، ومنها دمية قاتل الحسين، وفق ما سلف الذكر فأوضح من أن تحتاج إلى تفسير.

وتستوقف الباحث في هذا السياق أنشودة يرددوها الأطفال وهم يطوفون بالنار، ففيها ذكر لشخصيتين اثنتين هما (أبا الشيخ أوبابا علي وللا منانة) بالإضافة إلى طائر الغراب وهي تبدأ على هذا النحو:

أَلَا مَنَانَا
 خَدُوجَ بِلَعْمَانَا
 وَالسَّاقِيَا تَسْقِيَنِي
 وَالْوَادِ مَا يَدِينِي
 بَابَا عَلِيَّ خُرُوبَا
 شَاشِيَتُو مَثْقُوبَا
 لَغْرَابَ دَايِزَ غَادِي
 قَالُوا فَايْنَ غَادِي
 قَالُوا عِنْدَ أَوْلَادِي
 قَالَا فَايْنَ هُمَا
 قَالُوا فَجَهَنَّمَا
 قَالُوا أَتَطِيحُ فِيهَا
 قَالُوا آمِينَ آمِينَ

ثم تنتهي بهذه العبارة:

الحمد لله رب العالمين.

إن هذه الأنشودة حسب روايتها أو الصيغة التي يدار بها الحوار بين بابا علي والغراب قابلة لإدانة أحدهما، ولكن الصيغة التي تميل إليها والتي كنا نردها تجعل الإدارة تنصب على الغراب الذي سيلقى مصيره مع أولاده في النار بدعاء بابا علي ومن يدري فقد تكون هذه الأغنية الشعبية تعبيرا عن موقف مؤيد للحسين والعلويين من خلال حضور شخصية الإمام علي.

ولا شك أن هذا التأويل يضع الظاهرة في سياق يلقي مع مظاهر أخرى سبقت الإشارة إليها كالامتناع عن تنظيف المنزل وغسل الثياب - وهي كلها تنم عن الرغبة في إبراز الحزن للمأساة التي عرفها المسلمون عامة وآل البيت خاصة في يوم عاشوراء. إلا من العادات ما يبدو معبرا عن موقف مناقض دال على الفرح والسرور، وهو موقف لا يستغرب من حيث المنطلق بحكم الصلات التاريخية التي كانت للأمويين في المغرب منذ الفتح الإسلامي والتي رسختها دولتهم في الأندلس.

ولكن إمعان النظر في تلك العادات أو بعضها على الأقل يفصلها أو يكاد عن هذا التأثير ويميل إلى تفسيرات أخرى تجعلها في إطارها الحق، ويكفي أن نقصر منها على ممارسات أربعة لها حضور قوي يطبع احتفال المغاربة بهذا اليوم:

١ - التوسعة على العيال:

لقد شاعت هذه التوسعة عند المغاربة في يوم عاشوراء بقصد إفراح أطفالهم والبسط لهم في الإنفاق، امثالاً لقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: من وسع على عياله في سوم عاشوراء وسع الله عليه في سنته كلها^(١).

وهو معنى أكدته الأدبيات المرتبطة بهذا اليوم، على نحو ما قال عبد الملك بن حبيب السلمي الأندلسي (ت ٢٣٩هـ) يخاطب سلطان الأندلس^(٢):

لا تنس لا ينسك الرحمن عاشورا	واذكره لا زلت في التاريخ مذكورا
قال النبي صلاة الله تشمله	قولا وجدنا عليه الحق والنورا
فيمن يوسع في إنفاق موسمه	أن لا يزال بذاك العام ميسورا

وورد^(٣) أنه خاطب بها الأمير عبد الرحمن ابن الحكم في ليلة عاشوراء وأنها على هذا النحو:

لا تنس لا ينسك الرحمن عاشورا	واذكره لازلت في الأخبار مذكورا
من بات في ليل عاشوراء ذا سعة	يكن بعيشته في الحول محبورا
فارغب فديتك فيما فيه رغبنا	فيه الورى كلهم حياً ومقبورا

وإذا كانت هذه العادة تعتبر أمراً حميداً سواء في يوم عاشوراء أو غيره، ومثلها التصديق على الفقراء والمساكين، فإنها لا تغني - كما يظن البعض - عن زكاة الأموال المفروضة والمقننة باثنين ونصف في المائة من المال الذي مضى عليه عام، والذي يكون قد استوفى النصاب، مع العلم أن غير قليل من الناس يتخذون هذا اليوم بحق وقتاً لإخراج الزكاة. ومعروف أن هذه الزكاة وكذا مطلق الصدقة تعطى لمن يستحقها من الأصناف الثمانية المذكورة في القرآن الكريم، وإذا كان المستحق من أقرباء من تجب عليه الزكاة أو

(١) أورده الطبراني والبيهقي في الشعب عن أبي سعيد، كما رواه البيهقي عن جابر وأبي هريرة.

(٢) نفح الطيب للمقري ج ٢ ص ٦ (ت- إحسان عباس ط دار صادر بيروت ١٣٨٨-١٩٦٨).

(٣) البيان المغرب لابن عذاري ج ٢ ص ١١١ ترجمة جورج كولان وليفي بروفسنال ط دار الثقافة ببيروت.

من يخرج الصدقة، فإن إعطاءها يكون زيادة على كونه زكاة أو صدقة، من قبيل صلة الرحم، لقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حين سئل عن الصدقة على القريب، له أجران أجر القرابة وأجر الصدقة^(١).

٢ — تزين النساء وتصوم الأطفال وإلهاؤهم باللعب:

إن من الإنصاف للمغاربة ولغيرهم من الذين يمارسون مثل هذه العادة بعيداً عن أي موقف تاريخي، أن يشار إلى أنها كانت معروفة عند العرب والمسلمين قبل مقتل الحسين، وإن وقع الحث على الاكتفاء بالصوم الذي هو سنة كما مر.

فعن أبي موسى قال: كان أهل خيبر يصومون يوم عاشوراء يتخذونه عيداً ويلبسون نساءهم فيه حليهم وشارتهم^(٢)، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: فصوموا أنتم^(٣).

وعن الربيع بنت معوذ أنها قالت: كنا نصوم عاشوراء ونصوم صبياننا الصغار منهم ونذهب إلى المسجد فنجعل لهم اللعبة من العهن^(٤) فإذا بكى أحدهم على الطعام أعطيناها إياه إلى الإفطار^(٥).

٣ — اتخاذ البياض في اللباس:

وهو غير مقتصر على يوم عاشوراء، ولا على الفرح فحسب ولكنه اللون الذي يتخذه المغاربة في جميع مناسباتهم حتى ما كان منها متسماً بالألم والحزن، ويبدو أن المغاربة في ذلك متأثرون بتقليد الأندلسيون الذين لم يتخذوا السواد على نحو ما في بلاد المشرق. وفي هذا يقول ابن شاطر السرقسطي^(٦):

قد كنت لا أدري لأية علة	صار البياض لباس كل مصاب
حتى كساني الدهر سحق ملاءة	بيضاء من شبي لفقد شبابي
فبذا تبين لي إصابة من رأى	لبس البياض على نوى الأحباب

(١) رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن جابر.

(٢) هيئة التحمل.

(٣) رواه البخاري ومسلم.

(٤) الصوف.

(٥) أخرجه البخاري ومسلم.

(٦) نفح الطيب ج ٢ ص ١٠٩.

ويقول الحصري^(١):

إذا كان البياض لباس حزن بأندلس فذاك من الصواب
ألم ترني لبست بياض شبي لأني قد حزنت على الشباب

٤ - الاكتحال:

وهو كلباس البياض يحتمل التزين وعكسه، على نحو ما تكشف الأدبيات المرتبطة به، فقد ذكر عبد الملك المراكشي في ترجمة نجم الدين يونس بن مهذب الدين عثمان الحسني المازندراني أنه حكى في مجلس الرشيد الموحي بمراكش ما حدث للواعظ أبي الفرج الجوزي ببغداد يوم عاشوراء وقد اكتحل فقام إليه أحد الشيعة، وقال له: لم تجد متى تكتحل إلا في اليوم الذي قتل فيه الحسين وسفك فيه دمه أو ما علمت أن الكحل من الزينة التي تناسب السرور وكأن ذلك كان نذرا عليك.

فأجابه أبو الفرج بهذين البيتين ارتجالاً:

ولائم لام في اكتحالي يوم استحلوا دم الحسين
فقلت دعني أحق عضو يحظى بلبس السواد عيني

فاستظرفهما الرشيد وبهج بهما وأشار بالأخذ في تذليلهما^(٢) فتسابق الشعراء للقول من ذلك أبيات أبي علي الحسن بن محمد بن حازم أخى حازم القرطاجي^(٣):

وهل لباس السواد إلا شعار حزن لا زي زين
كأن عيني بعد رزئي بمقتل السبط تحت دين
يقضي غريم الغرام دوماً كالنبر ذوباً لا كاللجين
لو أنني يوم كربلاء شهدت ما حان فيه حيني
حتى أبعد العدا ضراباً بالسيف طورا وبالرديني

(١) المصدر نفسه.

(٢) الذيل والتكملة س ٨ ق ٢ ص ٤٦٥ ت د. محمد بنشريف مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية الرباط ١٩٨٤.

(٣) المصدر نفسه ص ٤٦٦.

ومثلهما قول أبي محمد عبد الله العراقي الفاسي^(١):

أحـق بالـحـزن يـوم بـين	خـصت يـادراكـه فـكانت
مـن أجـلها قـيل فـرض عـين	فلبـسهما للـسواد فـرض
يـجـري اضـطـراراً بمـقلـتين	سـواد قـلبي عـند كـحلي
للـحـزن كـالـقـرار مـرتـين	فـكم أـحـالاً ثـياب جـسمي
يـسود لـو قـد مـن لـجـين	فـلا تـلم في بـياض ثـوب

وقول أبي عبد الرحمن عبد الله بن زغبوش المكناسي^(٢):

مـن اكـتـحـال بـالمـقلـتين	أقـصر فـإن الـذي تـراه
نـيران حـزن بـغـير مـين	دخـان قـلب قـد أـحـرقـته
فـحـل مـنـه بالـنـاظـرين	فـصـعدتـه أنـفـاس وـجـدي
كـيـف تـبـدئ بـالمـفـرقـين	وأنـظـر إلـى ذا الرـمـاد مـنـه
عـلى البرايـا وفـرض عـين	فـحـب آل النـبي حـتم

وفي نفس الموضوع قال أبو عبد الله بن يوسف المصانعي خمس مقطوعات منها هذه^(٣):

كـحـلت للـحـزن لا لـزـين	وـشـاهـدي حـبه بـأي
عـلي والـله غـير هـين	فـأمر قـتل الحـسين صـعب
قـرحـت جـفني دـون مـين	وقـد بـكـيت الحـسين حـتى
قـد يـجـلب الـزـين شـر شـين	فـكان كـحلي بـسـتر مـاي
فـلـست مـسـتـوجـبا لـلـزـين	فـلـت تـشـنع ولا تـبـشـع

(١) المصدر نفسه ص ٤٦٨.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) نفسه ص ٤٦٩.

بين التأثير الشيعي والأموي

لعله واضح بعد هذه المحاولة التفسيرية أن ممارسات المغاربة في يوم عاشوراء مزيج من جانب ديني وطقوس مترسبة في ذهنية المجتمع وسلوكه، بعضها سابق على المرحلة الإسلامية، وبعضها متأثر بالتقاليد التي انتقلت إلى المغرب على امتداد هذه المرحلة وتعد العناصر العاملة فيها والمؤثرة، سياسية وفكرية واقتصادية واجتماعية.

ومن ثم جاءت خليطاً من معالم السرور وملامح الحزن لكن في بعد عن أي موقف مقصود لذاته، فالمغاربة منتمون للسنة و متمسكون بها، بل من دعاها وحماها، وهم في نفس الوقت متعلقون بالرسول صلى الله عليه وآله وسلم وآل بيته ومتفانون في حبهم إلى أقصى حد ومغرقون في مدحهم والتوسل بهم.

ولا غرابة في أن يتجه المغاربة نحو هذا التعلق إلى درجة التقديس، فهم معروفون بقوة عقيدتهم ومتانة دينهم، ومعزون بأن يكون الإسلام في طليعة مقومات هويتهم الثقافية وكيانهم التاريخي، بل المقوم الأساسي لشخصيتهم الفردية والجماعية. وإن من يتأمل هذه المشاعر نحو العترة النبوية الطاهرة ليخيل إليه أن المغاربة قد اعتنقوا التشيع، ولكن الأمر في حقيقته لا يتجاوز محبة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ولا سيما السيدة فاطمة الزهراء وعلياً وابنيهما الحسن والحسين رضي الله عنهم أجمعين، في إكبار لشجاعة ابن أبي طالب واتخاذهم رمزا للبطولة الإسلامية، وفي تألم لمأساة الحسين، لكن في غير أخذ بالأفكار الشيعية، مرددين قول الله تعالى: (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً) [الأحزاب : ٣٣].

وإذا كان غير مستبعد أثر الأمويين في تقليص مجال الفكر الشيعي في الأندلس والمغرب، فإن لذلك أسباباً أخرى تبدو أعمق وأرسخ، وتتجلى في الذهنية الأندلسية والمغربية التي ارتبطت بالدين في غير ميل للجدل العقلي وإثارة القضايا الباطنية التي ناقشها علماء الشيعة، كما تتجلى في المناخ الجهادي الذي كان يوجه سلوك الأندلسيين والمغاربة وهم يواجهون باستمرار تحديات المد النصراني الذي لم تفتقر مناوشاته ولا مواقفه الهجومية.

ومع ذلك فقد عرفت الأندلس بعد الأمويين فترات برز فيها المد الشيعي، على نحو ما حدث أيام الفتنة وفي ظل الحموديين، كما عرف المغرب آثاراً قوية لبعض مبادئ المذهب الشيعي، تحفزاً من حب المغاربة لآل البيت، ويتبين تاريخياً أن مظاهر هذا الحب قد تجلت

واضحة في الترحيب الذي لقيه المولى إدريس إثر فراره من وقعة فخ سنة ١٦٩هـ على عهد الهادي العباسي، وتنازل عبد الحميد بن إسحق الأوربي عن إمارته له في ويلي ودعوته القبائل أن يبايعوه، ومن ثم لا يستبعد أن يكون المولى إدريس وهو علوي مناضل قد حمل بعض مبادئ الشيعة إلى المغرب مما قد يدل على اتصال الحركة الشيعية بالمغرب قبل ظهور الداعية الإسماعيلية أبي عبيد الله المهدي مؤسس دولة الفاطميين في الشمال الإفريقي، ولكن الأدارسة كانوا معتدلين في شيعيتهم مما جعلهم يلتزمون السنة ويعملون على انتشار مذهب مالك.

ومع بداية عهد المرابطين في منتصف القرن الخامس الهجري كان يوجد بتارودانت في جنوب المغرب جماعة من (الروافض) المعروفين بالبحلية نسبة إلى عبد الله البجلي، إلا أن داعية الدولة المرابطية عبد الله بن ياسين وضع حدا لحركتهم.

أما في العصر الموحد (القرن السادس الهجري ونصف السابع) فلا يخفى أن مذهب المهدي بن تومرت داعية الدولة ومؤسسها كان يقول ببعض آراء الإمامية من الشيعة كالعصمة والمهدوية، وإن تراجعت الدولة عن آرائه منذ عهد يعقوب المنصور^(١).

ولكن هذا كله لم يجعل المغاربة والأندلسيين يتشيعون إلا في الحدود المعتدلة التي لم تزد على حب آل البيت وتقدير مواقفهم والإعجاب بشجاعتهم والتأثر لما أصابهم، في تجاوب كبير أبداه العلماء والأدباء المغاربة بما لا يسعف المقام لبسطه في هذا العرض، وسنكتفي بنماذج مما صدر عن شعراء (الملحون) الشعبيين وهم يعربون عن هذا التجاوب^(٢)، على نحو ما فعل الحاج إدريس لحنش (ت ١٣١٩هـ) في قصيدته (أسادتي أولاد طه)^(٣) وهو يتوسل إلى أبناء الرسول أصحاب الجود والفضل أن ينظروا إلى حاله حتى يظفر بأمله

(١) انظر في هذا الموضوع دراسات للمؤلف ومنها:

- المغرب وتيار المذاهب الإسلامية. مجلة الإيمان السنة ٣ الأعداد ٤-٥-٦ (١٩٦٦).
- في الشعر السياسي ص ١٣٥ فما بعد (نشر دار الثقافة - البيضاء ط ١٤٠٢ - ١٩٨٢).
- الأمير الشاعر أبو الربيع سليمان الموحد (فصل: ثورة سياسية ومذهبية) ابتداء من ص ١١ ط ثانية. دار الثقافة - البيضاء ١٤٠٤ - ١٩٨٤).
- وحدة المغرب المذهبية خلال التاريخ منشورات الجمعية المغربية للتضامن الإسلامي - ط دار الثقافة ١٣٩٦ - ١٩٧٦.
- الفكر والوحدة (فصل: أسباب انتشار المذهب المالكي واستمراره في المغرب) ابتداء من ص ٧٩. ط مكتبة المعارف - الرباط ١٤٠٤ - ١٩٨٤.
- بحوث مغربية في الفكر الإسلامي (فصل أسباب انتشار المذهب المالكي في المغرب) ابتداء من ص ٣٩ ط الأولى ١٤٠٨ - ١٩٨٨م.

(٢) انظر كتابنا (الرجل في المغرب: القصيدة) ص ٥٠٩-٥١٠-٥١١.

(٣) انظرها كاملة في الكناش رقم ١١ ص ١٥٧ (مجموعة الكاتب الخاصة).

ويسلو وتنهأ روحه ويزول عنها الشقاء، فقد جاء يسعى حماهم، وهم أهل الوفاء والرحمة ونجوم الدنيا الزاهرة، عساه يقبل وينال الرضى ويزهى بالبشر حاله، فقاصدهم لا يخيب، وقد صال عليه الزمان شاكياً تسيل دموعه:

أســــــــــــادتي أولاد طــــــــــــه	شــــــــوفوا مــــــــن حــــــــالي
جــــــــمــــــــعوا داتي أــــــــمــــــــع أدواها	نظفــــــــــــــــر بــــــــمــــــــالي
واتــــــــريح الروح أــــــــمن أشقاها	وأــــــــنــــــــولي ســــــــــــــــالي
أســــــــــــادتي أولاد طــــــــــــه	بغــــــــى نــــــــبرا مــــــــن لــــــــلال
شــــــــوفوا حــــــــالي أفغــــــــير حــــــــال	رفــــــــعوا عاري أو صارخوني قــــــــنــــــــا روحي
أســــــــــــادتي أولاد طــــــــــــه	لحماكم جيــــــــت يا فضال
قــــــــبلــــــــوني بالرضــــــــا أنــــــــا	يا دار الجود ولوفا وأنجوم الدنيا الزاهرا
أســــــــــــادتي أولاد طــــــــــــه	قاصــــــــدكم ما يــــــــرا نكــــــــال
لــــــــين لــــــــبــــــــعير ولغــــــــزال	أهــــــــرب لمقام جدكم يا هل الرحما الناشر
أســــــــــــادتي أولاد طــــــــــــه	عني عــــــــاد الزمان صــــــــال
والدــــــــمع مــــــــن لــــــــعينون ســــــــال	قــــــــبلوا مــــــــنجا لبابكم شاكي يزها أبلــــــــبشرا

فليس له من دواء غيرهم، في رضاهم عنه ربحه وغناه ورأسماله، وهو يرجو أن يقبل عبداً في حماهم للخدمة فهم آل النبي الأصفياء الأوفياء المطهرون أعطاهم الله من أسرارهِ الباهرة، وهم أبناء فاطمة القرشية الشريفة الكريمة درة الجمال الحسنة الأفعال، الشبيهة بحور الجنان:

شــــــــيدوني أبــــــــلا دواكم يا هــــــــل لــــــــعــــــــالي
 ربحــــــــي وأغــــــــنــــــــاي في أرضكم هو رــــــــسمــــــــالي
 قــــــــبلــــــــوني عــــــــبد في أحماكم نخدم مــــــــدــــــــالي
 أنتم أهــــــــل الصفا ولوفا وأنتم أهــــــــل النــــــــبي الآل
 طهــــــــــــــــركم حــــــــقق ذو الجــــــــــــــــلال
 وأعطاكم كامــــــــل لــــــــعطيا حــــــــسن أسرارو الباهرا

أنتم أولاد الشريفا القرشيا درت لجمال
لكريم زينة لفعال
مولاتي فاطمة البتول الحريفا القاصرا

وإلى أولاد فاطمة كذلك يتوسل الحاج أحمد الغرابلي (ت ١٣٤٠هـ) في قصيدة
(لشرف الحسين)^(١) التي يقول في حريتها:

طلبكم ضيف الله سرخنا يا هل لسان
من يقصدكم حاشا أئيب يا هل البيت العدنان

لشرف الحسين

وفيها يقول متوسلا إليهم بجدهم ونورهم السني وشأنهم العظيم وطيبهم العطر أن
يفكوا أسرهم ويغفروا كسرهم ويزيلوا ظلمته ويضيئوا نجمه، فتفتح له أبواب الخير
ويربح ويسعد في آخرته ودنياه، وطالما أن خلفهم مستمر فهم رحمة للعصاة والمتقين، وكل
من لجأ إلى حرمهم لا يخاف وهم يشفعون في محبتهم فيدخل الجنة:

نبغي أسراح يسري وغنا فقري أوطب كسري
نسعد وأنفوز بلمزييا حين أعطفوا سيادنا
هل لوفنا ضماني لشرف الحسين وأبحق جدهم نسألهم الماجدين
وأبحق نورهم الوسوم وأبحق شأنهم الفاخم

وأبحق طيبهم الناسم

نبغي أنلوح ظلمي يضمي نجمي أب نور يسمي
وأبواب الخير تنفتح أفريح الدنيا أو الآخرة

نسألهم يعطاني

نسعد فالدارين

يا ولاد الزهرا الطاهرا الشرفا نخبة عدنان

(١) انظرها كاملة في الكناش رقم ٢٠ ص ٧ (مجموعة الكاتب الخاصة).

ماداموا فالدنيا أنجاهم ثقات وعصيان

بهم مرحومين

كيف انخافوا واحنا فحرمهم يا ملت لخوان

أيشفعوا فاللي حبههم ويدخل الجناعاني

يغنم حور العين

ومثل هذا التوسل بأولاد فاطمة الزهراء نجده عند محمد العيساوي الفلوس (ت ١٩٥٥م) إذ يقول^(١):

يا ولاد المختار الهاشمي المرسال	لا تدوزوني يوم البعث وهوال
نوركم أكسا الدنيا يا هل لكرايم	يا ترى فيها كم يتمتعوا أنيامي
ودكم أبفضلو نعم لغني الدائم	أعلى الخلق أحباكم أوجاهكم سامي
إذا اعطفتوا عني روضي أيعود ناعم	من اسقيتوه ما يبقى أكلح ضامي
إذا أرضيتو عني نرمي أجميع لهوال	ما يخيب من أقصدكم يا هل لمعال
إذا اعطفتوا عني قلبي أيريح والبال	كان وصل أرضاكم أعلى أرضى العال
يا هل النور الساني جيتكم مكيود	سرحو سجلي يا لشراف من أكياي
يا هل النور الساني جيتكم مطرود	دونكم ما عندي من ذا الغلال فادي
يا هل النور الساني جيتكم موكود	عاملوني يا آل المصطفى الهادي
يا هل النور الساني جيتكم موسال	صرخوني يكمل قصدي أمع أسوالي

وكان الشاعر الفلوس قد أنشأ قصيدة (في مقتل سيدنا الحسين) يقول في حربتها^(٢):

يا لحضرا سمعوا وفاة نور لنوار ولد فاطما الزهرا سيدنا الحسين

والحقيقة بعد هذا أن موقف المغاربة من آل البيت في كل عهد وما زال قائم على عاطفة متأججة هي التي عبر عنها عبد المهيمن الحضرمي السبتي حين قال:

أحبهم حب التشرع لا حب التشيع^(٣).

(١) الكناش ١٢ ص ٦٢.

(٢) الكناش ١٢ ص ٢٠.

(٣) نفح الطيب ج ٥ ص ٤٦٩.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم:

كتب الحديث:

البخاري - مسلم - أبو داود - الترمذي - النسائي - ابن ماجه - ابن حنبل - الطبراني - البيهقي (الشعب).

ابن إبراهيم (العباس)

— الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام - طبعة أولى ١٣٥٨هـ / ١٩٣٨م
المطبعة الجديدة - فاس.

بخوشة (محمد)

— أدب المغاربة وحياتهم الاجتماعية والدينية وبعض خرافاتهم - طبعة ثالثة - الدار البيضاء ١٣٦٣هـ / ١٩٤٣م.

البكري (أبو عبيد عبد الله)

— كتاب المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب (جزء من المسالك والممالك). منشور بعناية دوسلان - الجزائر ١٩٥٧م.

البيروني (أبو الریحان محمد)

— الآثار الباقية عن القرون الخالية. طبع لبيزك ١٩٢٣ - مكتبة المثنى ببغداد.

الجراري (عباس)

— الأمير الشاعر أبو الربيع سليمان الموحي نشر دار الثقافة - الدار البيضاء الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.

— بحوث مغربية في الفكر الإسلامي. الطبعة الأولى الرباط - ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.

— الزجل في المغرب (القصيدة). الطبعة الأولى - الرباط ١٩٧٠م (مطبعة الأمانة).

— الفكر والوحدة. طبع مكتبة المعارف - الرباط ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.

— في الشعر السياسي. نشر دار الثقافة - الدار البيضاء - الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ /

١٩٨٢م.

— المغرب وتيار المذاهب الإسلامية. مجلة الإيمان سنة ٣ الأعداد ٤-٥-٦ (١٩٦٦م).

— وحدة المغرب الذهنية خلال التاريخ منشورات الجمعية المغربية للتضامن الإسلامي.

طبع دار الثقافة - الدار البيضاء ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م.

- كناش في الملحون رقم ١١ (جمع الجراري).
 — كناش في الملحون رقم ٢٠ (جمع الجراري).
الجراري (عبد الله بن العباس)
 فتاوى الجراري. نسخة مرقونة.
 — القول المحتم في لبس الخاتم. طبع الرباط ١٣٥٠هـ / ١٩٣٢م.
ابن الحاج (محمد بن محمد العبدري)
 — المدخل. طبعة ثانية - دار الكتاب - بيروت.
السوسي (محمد المختار)
 — المعسول. مطبعة النجاح - الدار البيضاء ١٣٨٠هـ - ١٩٦٠م.
ابن الصديق (أحمد)
 — كتاب لب الأخبار المأثورة فيما يتعلق بيوم عاشورا. مطبعة ابن حيون - طنجة - ١٣٤١هـ.
عاشور (محمد بن محمد العربي الرشادي)
 — رسالة في (بدع عاشوراء). مخطوطة في الخزانة الحسينية بالرباط ضمن مجموع رقم ٢٠٢٨.
ابن عذارى (المراكشي)
 — البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ج ٢ تحقيق جورج كولان ولفي بوفنسال - طبع دار الثقافة - بيروت.
 ج ٣ تحقيق أمبروسي هويسى ميراندة، ومشاركة محمد بن تاويت ومحمد إبراهيم الكتاني - منشورات كلية الآداب - جامعة محمد الخامس بالرباط بمساهمة المركز الجامعي للبحث العلمي وتحت إشراف معهد مولاي الحسن بتطوان ١٩٦٠م.
ابن القطان
 — فضائل عاشوراء. ضمن مجموع مخطوط في خزانة ابن يوسف بمراكش رقم ١٦٨.
لوطورنو (روجي)
 — فاس قبل الحماية. ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر. طبع دار الغرب الإسلامي ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.
مجهول
 — كناش في الملحون. مخطوط في الخزانة العامة بالرباط رقم ق ١٦٥.

المراكشي (عبد الله)

— الذيل والتكملة. سفر ٨ قسم ٢ تحقيق الدكتور محمد بنشريفه مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية — الرباط ١٩٨٤م.

المراكشي (عبد الواحد)

— المعجب في تلخيص أخبار المغرب. تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي. مطبعة الاستقامة — مصر ١٣٦٨هـ / ١٩٤٩م.

ابن مرزوق (الخطيب محمد التلمساني)

— المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا الحسن = تحقيق د. ماريا خيسوس بيغيرا- تقديم محمود عياد — طبع الجزائر ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.

المقري (أبو العباس أحمد)

— نفح الطيب. تحقيق إحسان عباس — طبع دار صادر- بيروت ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م.

ابن الموقت (محمد بن محمد المراكشي)

— الرحلة المراكشية أو مرآة المساوي الوقتية — مطبعة الحلبي — مصر ١٣٥١هـ.



